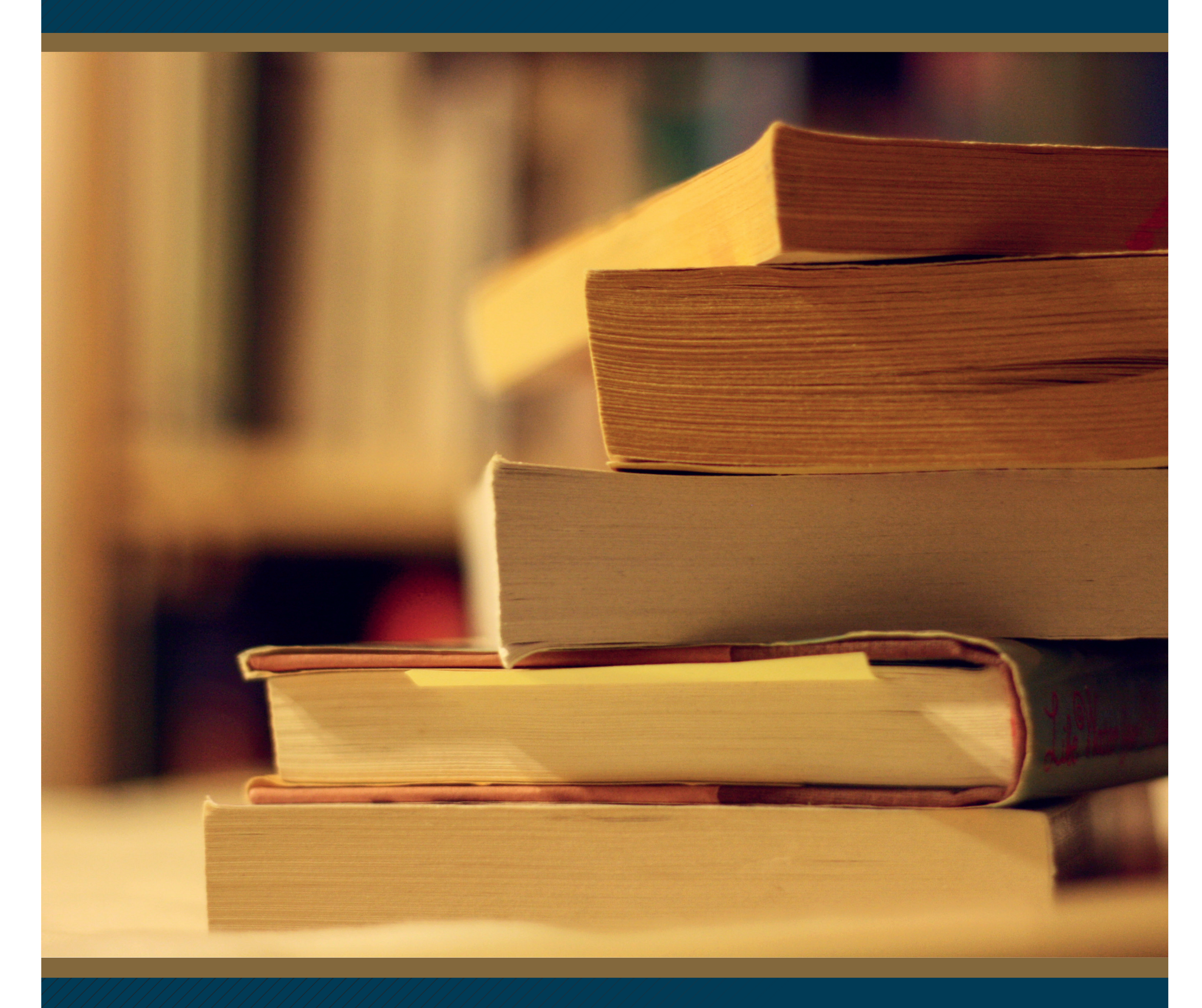
بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 22 يناير 2016

أثر المعتزلة في فكر محمّد عمارة:

الآثار الدينيّة



عمار بن حمودة
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com مؤسسة دراسات وأبحاث

أثر المعتزلة في فكر محمّد عمارة: الآثار الدينيّة[1]

---

[1] - تمثل هذه الدراسة فصلا من كتاب «**أثر المعتزلة في الفكر الإسلامي الحديث**» الصادر عن مؤسّسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، والمركز الثقافي العربي، 2014



الملخص:

مدار هذا الفصل على دراسة الآثار الدينيّة في فكر الباحث المصري المعاصر محمّد عمارة، وذلك من خلال تأثّره بالفكر الاعتزالي. وتتمحور تلك الآثار الدينيّة حول أثَريْن كبيريْن هما: الأثر الكلامي، والأثر الأصولي.

ففيما يتصل بالأثر الكلامي، وجد محمّد عمارة في الفكر الاعتزالي ما يدعو إلى تأسيس فلسفة إسلاميّة، وفكر عقلانيّ مؤمن، جديرين بالتدبّر، فضلاً عن أنّ المبدأ الذي تأسّس عليه علم الكلام هو الدفاع عن الإسلام، وهو ما تجلوه ثنائيّة «الأنا الصحيح»، و«الآخر المُخطِئ»، ومن ثَمّ يتبنّى محمّد عمارة أصول المعتزلة الخمسة المعروفة، مبيّناً صلاحيّتها في العصر الحديث (العدل، التوحيد، الوعد والوعيد، المنزلة بين المنزلتيْن، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر). وقد نقد المؤلّف عمّار بنحمّودة نزعة محمّد عمارة التمجيديّة للفكر الاعتزالي، وكأنّه ليست هناك مساهمات في الفكر الإنساني تدعو إلى الحريّة والاختيار مثلاً. وكشف المؤلّف، أيضاً، عن أهمّ التقنيّات الخطابيّة، التي وظّفها محمّد عمارة في تأسيس تصوّره الفكري في هذا الباب.

أمّا الأثر الأصولي، فيتجلّى في موقف محمّد عمارة من حجّية الأخبار (إنكار المعتزلة الأوائل لحجّية الخبر الواحد في المسائل الاعتقاديّة تحديداً) من ناحية، ومن عدالة الصحابة (تبنّي أطروحة تقديس الصحابة، وبيان نضالاتهم على نحو ما ترسّخ في المتخيّل الجمعي الإسلامي) من ناحية أخرى.



أ) الأثر الكلامي:

يعرّف التهانوي علم الكلام بأنّه «علم يُقتدر منه على إثبات العقائد الدينية على الغير، بإيراد الحجج، ودفع الشبه»[1]. يتبنّى، تقريباً، محمد عمارة هذا التعريف دون تنسيبه، فيقول: «علم الكلام: هو العلم الذي يُقتدر معه على إثبات الحقائق الدينية، بإيراد الحجج عليها، ودفع الشبه عنها»[2].

وقد تأثّر محمد عمارة بعلم الكلام تأثّراً كبيراً، وذلك على وجهين:

- الوجه الأوّل: يرتبط بالنزعة العقلية، التي وجد فيها محمد عمارة تأسيساً لفلسفة إسلامية وعقلانية مؤمنة تختلف عن «العقلانية الغربية الملحدة»[3]. ويحرص محمد عمارة، هنا، على تأكيد أنّ علم الكلام علم عربيّ النشأة، حتى يتمكّن من تأسيس مشروع «عقلانية مؤمنة» تختلف، في أصولها، عن الفلسفة اليونانية، و«العقلانية الغربية التي ستنشأ منها»[4].

- الوجه الثاني: اعتماد المبدأ الذي قام عليه علم الكلام من أجل الدفاع عن الإسلام، وقد ظهرت هذه النزعة في كتب كثيرة قامت، في بنيتها الفكرية، على ثنائية «الأنا الصحيح» و«الآخر المخطئ»[5]؛ فمفهوم «الشورى» يقف ليواجه مفهوم «الديمقراطية»، و«العقلانية الإسلامية» تقف ضدّ «النصوصية»، و«العقلانية الغربية» و«الوسطية» تواجه «الغلوّ السلفي» و«الغلو العلماني»، والتأويل الصحيح يقف سدّاً أمام التأويل الفاسد، فينشأ بذلك الداء العنصري[6].

لقد استطاع عمارة أن يجعل من علم الكلام ذريعة لوجود عدوّ داخلي أو خارجي يهدّد الإسلام، بحسب وجهة نظره، ويجعله في حاجة إلى سلاح عقلي للدفاع عن عقائد المسلمين، ولكن كثيراً ما يقع

---

1 ورد هذا التعريف في كتاب: في علم الكلام، لأحمد منصور صبحي، في جزئه الأوّل المخصص لدراسة فرقة المعتزلة، ص 16

2 ورد هذا التعريف في كتاب: معجم المصطلحات، ص241، وورد أيضاً في كتاب: شبهات المصطلحات، ص 582

3 يقول محمد عمارة، متحدثاً عن المعتزلة، الذين اعتبرهم فرسان العقلانية الإسلامية: «فالمعتزلة، ومن قبلهم أسلافهم، أهل العدل والتوحيد، قد مثلوا، في تطورنا الفكري، في مراحله المبكرة، عقلَ هذه الأمة، الذي تأمّل وتدبّر كي يجيب عن الأسئلة التي طرحتها الحياة على المجتمع والناس؛ فمنذ نشأتهم الأولى امتازوا، وتميّزوا، بالنظر الفلسفي في أمور الدين. فهم، إذاً، يمثلون تياراً عقلياً في الفكر العربي الإسلامي، حتى قبل حركة الترجمة عن اليونان وغيرهم من القدماء». تيارات الفكر الإسلامي، ص 69

4 يقول محمد عمّارة: «لقد أصبح الواقع الفكري للحياة العربية الإسلامية يتطلّب فرساناً غير النصوصيين، ويستدعي أسلحة غير النقول والمأثورات للدفاع عن الدين الإسلامي، وعن حضارة العرب والمسلمين. وغدت الأمة العربية المسلمة تتطلع إلى نمطها الفلسفي المتميّز، الذي تدافع به عن بنائها الحضاري الخاصّ... فلا بدّ من الاستجابة الإيجابية تجاه ما فُرِضَ عليها من تحديات»... وكان المعتزلة «هم التجسيد للأسلحة الجديدة التي تسلّحت بها الأمّة دفاعاً عن حضارتها الوليدة، ودينها الجديد، أمام خصومها من أهل الملل، والنحل، والمذاهب، والفلسفات الأخرى». تيارات الفكر الإسلامي، ص 67

5 انظر، مثلاً، كتاب: عمارة، محمد، الإسلام والآخر من يعترف بمن؟ ومن ينكر من؟، الذي يخصّصه للدفاع عن الإسلام، وإبراز فضله على الديانات الأخرى.

6 يقول علي حرب، متحدّثاً عن الداء العنصري: «وبداية ذلك العمل على تفكيك منطق المفاضلة، والمماهاة، والاصطفاء، الذي يجعل الواحد يرفض الآخر؛ لأنّه ليس مثله، أو لا يفكر على شاكلته، فيتعامل معه كمنشق، أو مارق، أو متزندق، وصولاً إلى الحالة القصوى، حيث ينظر إليه بوصفه منقوص الإمكانية والكرامة. كما تشهد النماذج قديماً وحديثاً، من ابن بابويه، إلى محمّد عمارة، حيث تعامل النفس بعقلية الصفوة والطهر، ويعامل الآخر بمنطق الاستعباد والتطهير». الإنسان الأدنى، أمراض الدين وأعطال الحداثة، ص 104



محمد عمارة، كأسلافه، في فخّ «احتكار الحقيقة والتأويل»؛ لأنّه ينظر إلى مقاربته دوماً باعتبارها حاملةً الحقيقة المطلقة، بينما يحكم على الآراء الأخرى بالخطأ والفساد، سواء داخل الدائرة الإسلامية، أم خارجها، ما جعل علم الكلام ينقلب، في كثير من الأحيان، عند محمد عمارة، إلى خطاب إيديولوجي يحتكر الحقيقة[7]. وقد صار هذا الخطاب يحقّق الوظيفة البدائية لعلم الكلام، وهي «سجالية دفاعية، فصار بذلك عنفاً عقائدياً»[8].

كثيراً ما قامت كتابات محمد عمارة على «الحجاج»، وهو الجوهر البنائي لعلم الكلام؛ لأنّه كثيراً ما يعتمد حججاً متنوّعة للإقناع برأيه، ولاسيّما الحجج العقلية التي يركّز عليها، باعتبارها أكثر نجاعة في إفحام من لا يدين بدين الإسلام[9].

يبدو تأثُّر محمد عمارة بفرقة المعتزلة واضحاً، سواء الأوائل منهم، مثل النظام، أم المتأخرون، مثل القاضي عبد الجبار (ت 415ه)[10]، ويمكن أن نبرز وجوه هذا التأثُّر في الجوانب الآتية:

تبنيه أصول المعتزلة:

وهذه الأصول خمسة هي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المنزلة بين المنزلتين، العدل، التوحيد، الوعد والوعيد. وسنبيّن أثر كلّ أصل في فكره.

- **العدل:**

يَعُدُّ محمد عمارة هذا الأصل خاصّاً بمبحث «الحرية والاختيار» بالنسبة إلى الإنسان. وهو يقف في صف القائلين بالحرية الإنسانية، التي تُعَدُّ شرطاً أساسياً من شروط الإبداع والتجديد، ويفصل عناصر النظرة المتكاملة لحرية الإنسان، فيثبت حرية الإنسان في علاقتها بالخالق، وخلق الإنسان

---

7 يقول محمد عمارة: «في كلّ الكتابات العلمانية، التي كتبها الحداثيون عن الخطاب الديني الإسلامي، تراوح الطرح بين (الحد الأعلى)، الذي يريد نسخ الإسلام ديناً، بدعوى (تاريخية النصوص) المقدّسة والمؤسّسة، أو تأويلها تأويلاً عبثياً يفرغها من خصائص الدين». الخطاب الديني بين التجديد الإسلامي والتبديد الأمريكاني، ص 29

8 انظر: حميش، بنسالم، التشكيلات الإيديولوجية في الإسلام، ص 45

9 يقول محمد عمارة، مبرزاً الدلالة العقلية على وجوب الاجتهاد: «إنّ العلاقة بين (النص) وبين (الاجتهاد) هي علاقة التلازم والمصاحبة دائماً وأبداً، بتعميم وإطلاق... ذلك لأنّ موقف المجتهد الإسلامي أمام النص الإسلامي, كتاباً وسنّة, لا يعدو أن يكون واحداً من المواقف الآتية:

1. أن يكون النص (ظنيَّ الثبوت). وهنا لا خلاف على ضرورة الاجتهاد في (ثبوت) هذا النص.
2. أن يكون النص (ظنيَّ الدلالة). وهنا لا خلاف على ضرورة الاجتهاد في (دلالته هذا النص).
3. أن يكون النص (ظنيَّ الدلالات والثبوت). وهنا لا خلاف على ضرورة الاجتهاد في (دلالته وثبوته) كليهما.
4. أن يكون النص (قطعيّ الدلالة والثبوت). وهذا هو الذي يحتاج الأمر معه إلى التفصيل الذي يرفع عن المنهج الإسلامي خطأ وخطر المقولة، التي تزعم أنّ وجوده يعني عدم الحاجة إلى الاجتهاد؛ بل عدم جواز هذا الاجتهاد». معالم المنهج الإسلامي، ص 99

10 نميز بين الموقف المتشدد للمعتزلة الأوائل، الذين شكّ بعضهم في حجيّة الحديث والإجماع، وطعنهم في عدالة بعض الصحابة، والمتأخرين، الذين بدأوا يؤمنون بسياسية الأمر الواقع، ويتجاوزون تلك المواقف الأولى بقبول الأحاديث والإجماع، ويقدسون الصحابة. وقد بيّن حمادي ذويب، في كتابه: جدل الأصول والواقع، هذا التحول. انظر، مثلاً، ص 620



لأفعاله، كما يكشف أبرز أدوات تلك الحريّة، مثل: الإرادة، والمشيئة، والقدرة، والاستطاعة، ثمّ يفصل وجوه تلك الحريّة، فيميّز بين حرية الإنسان الرسول، وحرية الإنسان العادي في أحواله العادية، وحريّة الإنسان إزاء أفعالٍ تبدو ثمرة الغريزة. وتحدث عن حرية الملائكة وإبليس.

وبذلك، وجد محمد عمارة في الفكر الاعتزالي أساساً نظرياً لصرح الحرية، فصنع، من خلال مادتها، حرية معاصرة لا تقتصر على أبعادها الأصولية، وإنّما تتجاوز ذلك نحو أبعاد سياسية واجتماعية سنبيّنها في فصول أخرى لمقتضيات منهجية.

ويطرح عمارة مفهوم العدل في إطار الجدل بين أهل العدل والتوحيد، وغيرهم من الفرق الإسلامية، التي تختلف معهم في الرأي، ولا يخفى وعي عمارة بالأرضية الخلافية، التي تشكّلت فيها مبادئ المعتزلة. ويعرفه بمرادفاته، أو بخلفه، ذلك أنّ العدل يرادف «الحرية والاختيار» بالنسبة إلى الإنسان، و«التعديل والتجويز» بالنسبة إلى الذات الإلهية، وهو، أيضاً، يُقابل الجبرية، ونفي القدرة والاستطاعة عند الإنسان، ويقابل «الجبر» عند الذات الإلهية. ولا شكّ في أنّ عمارة قد تمثّل المفهوم من الناحية الأصولية، التي صِيغت من خلال حلقات الجدل مع الفرق الأخرى، ولكنّه لا يكتفي بتاريخية المفهوم؛ بل يسعى إلى اعتماده، باعتباره مفهوماً معاصراً يعني الحرية، ولكن ذلك يجعل الاختلافات التاريخية تسقط من ساحة نظره عملاً بأصول السلفية، التي تحاول بذل أقلّ جهد لتظفر بالحلّ السحري لمشكلاتها المعاصرة، وهي تقوم على «عقل استنباطيّ منطلقاته ناجزة، معدّة، ومعتبرة بمثابة اليقينيات والمطلق الثابت... ولهذا السلفي ليس مجتهداً، إنّه اجتهادي. في الحالة الأولى، يكون الفكر متحرّراً، متحرّكاً ومحرّكاً... أمّا الاجتهاد، فتوسُّط وتوسيط، إنّه يلائم ويوفّق، أو يصالح، يطمس ويبرز، إفناء وإبقاء»[11]. فمفهوم العدل، عند المعتزلة، نشأ في عصر مشكلاته لاهوتية سياسية. ومن وراء ستار العدل الإلهي، يكمن الصراع الحقيقي حول استبداد المستبد من حكّام المسلمين. واليوم، تبدو الحريّة في واقع صار أعقد في بنيته، تتعدّد فيه مجالات الحرية، فلم يعد المسلم، اليوم، في مواجه الله، ولم يعد السائس المستبد؛ بل صار يُواجه أشكالاً أعقد من الاستغلال الاقتصادي، والاجتماعي، والفكري، ولم تعد الأخطار، التي تهدّد الحريّة، كامنة في تلك البنى البسيطة، وإنّما صارت معقّدة أكثر بتعقُّد النظام العالمي في زمن الأقمار الصناعية، وإلزامات العولمة. ومن هنا، فإنّ «التلوين الاصطلاحي»، الذي يتجاهل الفرق الجوهري بين نظرية «العدل» عند المعتزلة، ومفهوم «الحرية»، يتجاهل ما طرأ على الواقع من تحوّلات، ويسقط في تصوّر دغمائيّ بأنّ إيديولوجيته تصلح لكلّ زمان ومكان. ويظلّ أكبر ما يخيف، في هذه القراءة السلفية، «قدرتها السريعة العميقة على تدمير العقلانية المحضة، وعلى التحويل إلى الميدان العرفاني»[12]. فاعتماد عمارة على مقولة العدل الاعتزالية، يدمّر، في ذهنه، كلّ المقاربات الفكرية المعاصرة للحريّة.

---

11 زيعور، علي، الاتزانية حيال السلفي، الفكر العربي المعاصر، العدد68 -69، 1989م، ص 70

12 المرجع نفسه، ص 72



- **التوحيد:**

يقول محمد عمارة: «كان التوحيد، بمعناه النقي المبرّأ من الشبهات، هو الذي دعا المعتزلة لنفي القدم عن القرآن؛ لأنّهم ينفون الصفات عن الذات العليّة، حتى لا يكون هناك إقرار بقدم هذه الصفات، فيكون مع القديم قديم آخر»[13].

ويَعدُّ محمد عمارة هذا الأصل مبدأً تنجرّ عنه جملة من القيم الفكرية التي حدّدها في مقدّمة **كتاب (التوحيد)** لمحمّد عبده، وأهمّها:

- نفي الكهانة، والإقرار بالسلطان لله الواحد. ويُبدي محمد عمارة نقداً مضمراً للفقهاء الذين كانوا يتخذون لأنفسهم منزلة قريبة من منزلة الكاهن، ويتوسطون بين العبد وربه، ويخدمون الحكّام، فيضفون شرعية على استبدادهم[14].

- تصوير تنزيهي للذات الإلهية: يقول محمد عمارة: «ولقد بلغ المعتزلة، والقائلون بالعدل والتوحيد، بهذا التصور التنزيهي للذات الإلهية، قدراً عظيماً من التجريد، والبعد عن فكر «المجبرة الحشوية»، الذين عجزت عقولهم عن أن تسمو بتصوّر الذات الإلهية عن حدود المحدثات والمخلوقات»[15]، ورأى محمد عمارة أنّ مبدأ التوحيد كان حاسماً في الردّ على المشبهة، واستطاع أن ينزّه العقيدة الإسلامية من الشوائب، التي كان من الممكن أن يكون لها أثر مدمّر، سواء من المسيحية، أم المانوية، أم اليهود، فكان للتوحيد وظيفة دفاعية عن العقيدة الإسلامية.

وبذلك، يقدّم عمارة هذا المفهوم على قاعدة خلافية لا تكتفي بإثارة الخلافات الداخلية بين المذاهب الإسلامية؛ بل تذكّر، أيضاً، بالخلافات الخارجية[16]، وهذه الأرضية من آليات الخطاب السلفي، الذي يقوم على «التجييش»[17] وإثارة الاختلافات الدينية، التي تصلح أن تكون وقوداً، لاعتبار الدفاع عن التوحيد دفاعاً عن الهوية ضد الغزو الخارجي وإلحاد المشركين، وهي وسيلة حمل على الإقناع[18].

وتكمن خطورة هذا التصوّر في أنّه لا يؤسّس للاختلاف؛ بل يؤسّس للخلاف، فالآخر المختلف إمّا ضالّ، وإمّا كافر، وفي الحالتين، العلاقة معه لا تفضي إلى حوار؛ بل تقود إلى صراع، وهي لغة

13 عمارة، محمد، نظرة جديدة إلى التراث، ص 91

14 انظر: عبده، محمد، رسالة التوحيد، ص 9، وتحديداً تقديم محمد عمارة لهذا الأثر.

15 عمارة، محمد، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، ص 47

16 يقول محمد عمارة، متحدثاً عن التوحيد: «وفي إطاره، كان الخلاف والصراع مع تيارات الملاحدة، والمعطلة، والدهرية، واليهود، والنصارى، وكلّ الفرق والتيارات الإسلامية التي قالت بالتشبيه، والتجسيد، أو الاتصال والحلول...». المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، ص 49

17 انظر: زيعور، علي، الاتزانية حيال السلفي، الفكر العربي المعاصر، العدد68 -69، 1989م، ص 71

18 نقصد بالحمل على الإقناع اعتماد حجج غير عقلية؛ بل وسائل تأثير انفعالية لجر ّالمخاطب إلى الاقتناع بالرأي ،ويتم ّذلك بإثارة مشاعر الخوف والرهبة مثلا ً،أو إثارة حماسة المخاطب ليتأثّر بالأطروحة.



-وإن وجدت مبرّراتها زمن انتصار المسلمين- تظلّ معزولة عن الواقع الحضاري، الذي يعيشه المسلم؛ ولهذا فهي تقوّي الطاقة العدوانية لديه تجاه الآخر، وهي تُسهم بقسط وافر في صناعة «الإرهاب»؛ لأنّها تؤمن إيماناً راسخاً بأنّها الرؤية الصحيحة وسط غابة من المخطئين.

- ولكي تكتمل العملية الحجاجية، التي انطلقت بالتعمية عن مشكلات العصر، ينتقل عمارة إلى تفصيل مفهوم «التوحيد»، ليغرق في مشكلات الماضي وصراعاته، فتحدّث عن التصوّر التنزيهي للذات الإلهية، فعَدَّ هذا المبدأ اعتماداً على التجريد بدل فكر «المشبهة الحشوية»، وردّاً على عقيدة التثليث المسيحية، التي بلغت حدّ القول بالاتحاد والحلول. وقد اعتمد عمارة على فكر القاضي عبد الجبار. وبذلك، يتّضح أنّ التوحيد لا يأتي تنزيهاً للذات الإلهية فحسب، وإنّما هو تنزيه للتصوّر الاعتزالي، ليصبح التأويل المنزّه، سواء في جدله مع الفرق الإسلامية الأخرى، أم في جدله مع الأديان، التي عُرفت في ذلك العصر. ولكن نسي محمد عمارة، وهو يقارب مفهوم التوحيد، الذي نشأ زمن هيمنة الفكر الديني، أنّ عصره يتكلّم لغة العلم والفلسفة، بعد أن كانت مفرداته دينية، فأسقط من ساحة تصوّره المباحث الفكرية المعاصرة، وتغيّر المشكلات الأنطولوجية للإنسان. فمفهوم التوحيد بحاجة إلى تجديد يخرجه من لغة السلف، وينفتح على قضايا الوجود الإنساني في عصرنا، فحتماً ثمّة سبل حجاجية أخرى لتنزيه الذات الإلهية لم تكن متوافرة زمن القاضي عبد الجبار، وهي من مكتسبات العلم المعاصر، وفتوحات الفكر الإنساني المبدع.

ويطرح عمارة، في إطار استعادة قضايا الماضي، مسألة «وحدة الذات والصفات»، ويذكّر بموقف المعتزلة الذين رفضوا الفصل بينهما، وتمتدّ المرجعيات الفكرية لهذا الرأي، عند عمارة، من رأي الإمام أبي القاسم الرسي (ت246هـ) إلى موقف الفيلسوف ابن رشد (ت595هـ)، الذي يسوّي بين العلم والعالم، وبذلك، إنّ نسبة التوحيد إلى المعتزلة إنّما هي احتكار مذهبي لا مبرّر له اليوم، يستعيد صراعات الماضي في الحاضر، زمن التبادل الفكري، والانفتاح الفكري، إنّه يؤبّد الانغلاق، ويسجن التأويل داخل دوائر ضيّقة تؤجّج الخلافات بدل الإسهام في حلّها.

ويطرح عمارة قضية رؤية الله على قاعدة خلافية، متبنياً رأي المعتزلة، الذين اعتبروا الرؤية مستحيلة، ويُعدُّ الخلاف حول هذه المسألة قديماً، نشأ زمن الترف الفكري، ورغبة الاختلاف التي كانت تسكن ذهن الفرق المتناحرة، وهي مسألة لا يمكن الحسم فيها منطقياً؛ لأنّها تستند إلى نصٍّ قابل للتأويل، يقبل القول بالرؤية، مثلما يقبل القول بضدّ ذلك، ويظلّ الحسم رهن مستقبل قد يكون بعيداً، ولهذا تفقد القضية أسسها، فما مدى الحاجة إلى طرح هذا السؤال في عصرنا؟ هل يحتاج المسلم إلى حسم المسألة؟ أَتلحّ عليه الحاجة إلى معرفة ذلك، أم ثمّة قضايا أخرى أصبحت أكثر إلحاحاً؟

أَلن تفضي إعادة طرح المسألة إلى قضية أشبه بأسبقية البيضة أو الدجاجة؟



ألن يؤوّل جدلاً عقيماً يشغل المسلم عن واقع يحتاج إلى النظر والبحث أكثر من الانشغال بالقضايا اللاهوتية؟

لقد أصبح الفكر، اليوم، يهتمّ بالإنسان أكثر من اهتمامه بالإله، وترك البحث في غياهب الميتافيزيقا، فقد صار من الملحّ استحضار السؤال الكانطي الحاسم: ماذا يجب أن نعرف؟

وتفرّعت عن التوحيد مسألة خلق القرآن، التي يجد العقل الإنساني نفسه عاجزاً عن حسمها للأسباب نفسها التي ذكرناها آنفاً، وهي مسألة أسالت كثيراً من الحبر في عصرها، وأريقت من أجلها الدماء؛ ولهذا، لا بدّ من أن تعيد استعادتُها إلى ذاكرتنا ما حفَّ بهذا الخلاف الفكري من خلفيات سياسية وإيديولوجية.

ويصرّ عمارة، على الرغم من ذلك، على تحويل وجهة الصراع نحو «الآخر»، وهو يؤصّل هذا المبدأ، فيرى أنّ قضية خلق القرآن ردّ على المسيحية التي ترى أنّ المسيح كلمة الله الأزليّة[19]. وهي وسيلة إيديولوجية لتجييش المتلقّي وتحميسه، ليكون خلق القرآن دفاعاً عن هويّة تهدّدها الأديان الأخرى. ولعلّ الوجه الإيديولوجي الثاني لهذا التصوّر اعتبارُ رؤية المعتزلة للتوحيد «تحريراً للعقل الإنساني من كثير من الأمور والمعتقدات»[20]، ولكن أيّ مفهوم للعقل؟ هل هو العقل الإسلامي؟ وحينئذٍ نسأل: أين مواقف الفرق الإسلامية الأخرى؟

أمّا إذا قصد العقل الإنساني فيما قاله، فسؤالنا: أين موقع الفكر الإنساني في هذه المقاربة؟

لعلّه عقل مذهبي، على قياس مبدعيه وعصرهم، ينطق بآرائهم، ولا يتجاوز حدود تصوّراتهم.

- **الوعد والوعيد:**

ويعني أنّ من أطاع الله دخل الجنة، وأنّ من عصى الله دخل النار، وخُلّد فيها بذنوبه، سواء بالكافر تعلّق الأمر أم بالفاسق. وقد نفى المعتزلة بذلك الشفاعة، إنْ مِنَ الرسول، أو من غيره، فدورها، حسب رأيهم، ليس حاسماً؛ بل هو يرفع درجات المؤمن، وقد ناصر محمد عمارة هذا الأصل؛ لأنه اعتبر رأي المرجئة، التي تنكر الوعد مبرّراً للاستبداد. أمّا عدل المعتزلة، فيقود إلى الإيمان بمبدأ الشورى[21].

وهو موقف ينفي مفهوم الشفاعة، ويجعلها حكراً على المؤمنين دون الفسقة. وإذا افترضنا صحّة هذا الرأي سألنا: هل اتفق المسلمون على مفهوم الكفر والإيمان، ليتفقوا على مفهوم الفاسق والمؤمن؟ ألم

19 انظر: عمارة، محمد، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، ص 63

20 المصدر نفسه، ص65

21 يقول محمد عمارة: «كانت المرجئة، بإنكارها صدف الوعد، وبقولها بالإرجاء، إنّما تخدم المتغلبين» على السلطة، الذين حولوها من «الشورى» إلى التغلب، «فسلبوا الإنسان العربي المسلم بذلك التغلب» ما قرّر له الإسلام من «حرية واختيار».



يُكَفِّر بعضهم بعضاً؟ حتى علي بن أبي طالب، الذي كان من أوائل المؤمنين بالدعوة الإسلامية، وشارك في كثير من الغزوات، وهاجر مع الرسول، كفَّره الخوارج. أليس الجزاء من اختصاص الخالق، وليس شأناً بشرياً باستطاعتنا حسمه؟ وحينئذٍ، لماذا تُقام محاكم الجنّة والجحيم قبل يوم البعث؟ وما فائدة مثل هذه الأحكام؟ هل غايتها إثبات العدل الإلهي، وهو أمر ثابت؟

- **المنزلة بين المنزلتين:**

يقول محمد عمارة، في سياق حديثه عن المنزلة بين المنزلتين: «فهل ننظر، اليوم، نظرة جديدة وجادّة في هذا الفكر القديم؟ وهل تستحقّ فكرة «المنزلة بين المنزلتين» منّا ما لم نظفر به فيما تقدّم من التاريخ؟»[22].

وقد بيّن محمد عمارة، من خلال هذا الموقف، اعتماد مبدأ المنزلة بين المنزلتين، الذي سيوظّفه في بناء «مشروع الإحياء والتجديد»، وصار يمثّل مبدأ الوسطية والاعتدال بدل الغلو، وقياساً على أنّ مبدأ المنزلة بين المنزلتين توسُّط بين «الغلو الخارجي»، و«تساهل المرجئة»، فإنّ محمد عمارة آثر أن يكون المبدأ نفسه محققاً لوسطية تقف بين «الغلو العلماني»، و«السلفية النصوصية»، فكان ذلك وسطاً بين العقلانية الغربية الملحدة، والسلفية النصوصية التي تنبذ العقل، وتؤمن بالنقل[23].

أمّا وحدة الذات والصفات: ويعني ذلك قول المعتزلة بأنّ الله قديم، وأنّ القرآن مخلوق، فإنّهم ذهبوا إلى القول: إنّ صفة القدم مقتصرة على الذات الإلهية، وقد اعتبر محمد عمارة هذا المبدأ «إسهاماً جديداً في مباحثهم الكلامية، التي تظافرت لتنتصر للتوحيد، والتنزيه، والتجريد، فيما يتعلّق بتصوّرهم للمبدأ الأول في هذا الوجود»[24]، وقد سعى إلى إبراز وجاهة هذا الرأي، من خلال موقف أعلام من المعتزلة، الذين حقّق نصوصهم، وعرف بآثارهم[25].

---

22 عمارة، محمد، الإسلام والمستقبل، ص 250

23 يقول محمد عمارة: «فبهذه الوسطية الجامعة، لم يعرف المنهاج الإسلامي المتناقض، الذي لم يجد له حلاً بين الروح والجسد، الدنيا والآخرة، الدين والدولة، الذات والموضوع، الفرد والمجموع، الفكر والواقع، المادية والمثالية، المقاصد والوسائل، الثابت والمتغيّر، القديم والجديد، العقل والنقل، الحق والقوة، الاجتهاد والتقليد، الدين والعلم، إلى آخر هذه الثنائيات، التي عندما افتقد منهج النظر إليها قسمة "الوسطية الجامعة" حدث الانقسام الحادّ والشهير في فلسفة الحضارة الغربية إلى "ماديين" و"مثاليين"، و"مادية" و"مثالية"، و"عقلانيين" و"لاهوتيين"، و"علماء" و"متدينين"، و"فلاسفة" و"مؤمنين"... منذ الجاهلية اليونانية لتلك الحضارة حتى نهضتها الحديثة وواقعها المعاصر». عمارة، محمد، الإصلاح بالإسلام، ص 42

24 عمارة، محمد، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، ص ص 52-53

25 حقق محمد عمارة رسائل العدل والتوحيد للقاضي عبد الجبار، ولأبي القاسم الرسي... كما ألف كتاب (مسلمون ثوار)، الذي عرَّف فيه بكثير من أعلام المعتزلة، واعتبرهم مؤسّسي الفكر الثوري.



وفيما يتعلّق بقضيّة خلق القرآن، عَدَّ محمد عمارة هذا الأصل سابقاً للمعتزلة، وذا دور كبير في الردّ على النصارى[26]. ويَعُدُّ التوحيد أصلاً وظيفياً استطاع أن يحفظ الدين زمن وجود تصوّرات أخرى تهدّد كيانه من الداخل أو الخارج.

ونتيجةً لذلك، قال المعتزلة إنّ رؤية الله مستحيلة، ويؤكّد عمارة ذلك بقوله: «ولقد كان طبيعياً، مع هذا التنزيه، الذي قال به أهل العدل والتوحيد، أن يقولوا بنفي رؤية الخلق للذات الإلهية»[27]، واستنتج، أخيراً، أنّ التوحيد، كما تصوّره مفكرو المعتزلة، تجسيد للنضج البشري، وبناء لمبدأ الحرية الإنسانية، ضدّ زيف التجسيد، وضد الجمود العقلي الذي كبّل المسلم[28].

يمكن القول: إنّ مفهوم «المنزلة بين المنزلتين» قد تجاوز، بذلك، حدوده الأصولية، ليتحوّل إلى مبدأ هو أقرب إلى المقولة المنطقية التي يوظّفها محمد عمارة في مجالات معرفية أوسع، وهو، بذلك، يعتمد التأويل بدل تبنّيه المقولة الدينية، كما يفعل أصحاب المذاهب والدعاة[29]، وبذلك، فإنّه لم يعد منحصراً في الدائرة الأصولية؛ بل أصبح مبدأً من المبادئ الفكرية.

وقد اعتقد المعتزلة بأنّهم حسموا الخلاف بين الخوارج والمرجئة بهذا المبدأ، وهو، أيضاً، تصوّر لملابسات المحاكمة التي سيخضع لها الإنسان في الآخرة، فهي ذات بعد استباقي في الظاهر، ولكنّها، في الحقيقة، نشأت من صراع المسلمين فيما بينهم زمن الفتنة بين علي ومعاوية، وطرحتها صدمة قتال المسلم أخاه المسلم. وقد كان عمارة على وعي تامّ بتلك الأرضية التاريخية، ولكنّه، مع ذلك، جعل هذا الأصل، الذي اختصّ بظروف تاريخية محدّدة، معادلاً لمفهوم أوسع هو «الحرية»، وهو ما يجعل الربط بين «المنزلة بين المنزلتين»، و«الحرية والاختيار» تعسّفاً إيديولوجياً، يفقد الموضوعية، ما سيولّد لاحقاً مفهوم الوسطية.

- **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

يرى محمد عمارة أنّ هذا الأصل لا يقتصر على المعتزلة؛ بل تؤمن به الزيدية، والخوارج، وكثير من «المرجئة»، ويقف أهل الحديث ضدّ هذا المبدأ، ويسعى عمارة إلى حشد آراء القدامى، ليثبت شيوعه ووجاهته، وقد رأى أنّ هذا الأصل هو الذي جعل المعتزلة رائدة في مفهوم الثورة ضدّ

26 يقول محمد عمارة: «ولقد كان لقول المعتزلة بخلق القرآن، واجتهادهم في نفي قدمه، صلة وثيقة بصراعهم ضد فرق النصارى، الذين استندوا إلى عقيدة "قدم الكلمة" (المسيح) في تأليه عيسى بن مريم». المعتزلة ومشكلة الحريّة الإنسانية، ص 58

27 المصدر نفسه، ص 53

28 يقول محمد عمارة: «ومن باب أولى، فإنّ نقاء التصور التوحيدي والتنزيهي عند المعتزلة هو تأكيد، وحرص، وتنمية، لهذا القدر من التحرّر الذي منحه التوحيد لعقل الإنسان». المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، ص59.

29 لا بدّ من أن نميّز بين أثر الفكر الاعتزالي في الدعاة، فهم يتبنّون مقولات الماضي تقليداً. أمّا منهج «المعتزلة الجدد»، من أمثال محمد عمارة، فإنّهم يسعون إلى قراءة فكر المعتزلة في ضوء التطورات التي شهدها الفكر الإنساني.



ظلم الساسة، وعدّه درساً للجماهير، للإطاحة بالنظم السياسية الظالمة، على خلاف الجبرية التي تؤبّد الاستبداد وتبرّره[30].

وبذلك، يبدو تأثّر عمارة بالأصول الاعتزالية جليّاً، ولكنّه يندرج ضمن مشروع «التجديد والإحياء الإسلامي»، الذي لا يقف عند حدود تكرار مقولات المعتزلة، وإنّما سعى إلى تأويلها، وإعادة صياغة مفاهيمها، لتتحوّل إلى قوانين تشريعية، أو سياسية، أو اجتماعية.

وقد نشأ مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أرضية خلافية مع الشيعة الإمامية والمرجئة، وهو أصل يوجب، حسب رأي عمارة، الثورة المسلّحة على الانحراف في المجتمع. ولكن سرعان ما يتراجع ليتبنّى موقف ابن حزم، الذي يَعُدّ المبدأ شاملاً لكلّ الفرق الإسلامية. وقد اضطر، بسبب رأي ابن حزم، إلى بيان ما تخصّصت به المعتزلة من تحديد شروط الثورة، فيرى أنّ عبقرية المعتزلة تكمن في «رؤيتهم أنّ قيام الظلم إنّما هو مرهون بوجود الأعوان والأنصار، الذين يتّبعون الظلمة والطغاة، ويعينونهم على ظلمهم وطغيانهم»[31]. فهل تبدو هذه الفكرة حقّاً عبقرية؟ أليست سائرة على ألسنة العامّة زمن المعتزلة؟

لقد وقع عمارة في دائرة التمجيد، فراح يبحث في فكر المعتزلة عمّا يميّزهم، وإن كان ما يميّزهم موهوماً، ليؤكّد، في نهاية كلّ مسار حجاجي، أنّ فكرهم هو فكر الحريّة والاختيار، وتلك أطروحته.

وكان يتجاوز، في ذلك، حدود الموضوعية العلمية، فقد حجبت عنه مبادئ المعتزلة، التي كان مستغرقاً في بيان فضلها، كثيراً من إسهامات الفكر الإنساني قديماً وحديثاً في مجال الحريّة، وصار لقب «العدل والتوحيد»، الذي حمله المعتزلة، بمثابة صنم، يحتكر الحقيقة، من خلال احتكار التسمية، وصار ذلك المبدأ صالحاً بتصوراتهم، فاسداً ومتطرّفاً عند غيرهم من الفرق الإسلامية الأخرى أو الأديان. فوقع عمارة في هنات الانغلاق، وراح يفتّش، في دفاتر السلف الصالح من شيوخ المعتزلة، عن تصوّرهم المثالي للحريّة والاختيار، وراح يعمّم فضل هذه الفرقة المحدود بالمكان والزمان إلى فضل مطلق صالح لكلّ زمان ومكان، فعمل على توسيع دائرة التقديس، التي اتّصلت بالقرآن والسنّة، لتصبح آراء المعتزلة في الحريّة والاختيار مقدّسة بدورها.

ولهذا يمكن القول: إنّ عمارة قد اعتمد تقنيات خطابية متنوّعة ليؤسّس تصوّره:

---

30 انظر: كتاب المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، ص 68

31 المصدر نفسه، ص75.



- اعتماد مبدأ «الجدل الحماسي»[32]، الذي يصوّر مبادئ المعتزلة دفاعاً عن الإسلام ضدّ التساهل، والتشدُّد، وتعدُّد الآلهة، وفساد العقيدة، وهي وسيلة حمل على الإقناع؛ لأن حججها تقوم على تحريك الانفعالات، وتجييش المخاطب، ليتحمّس دفاعاً عن الإسلام، ويتصوّر هويته كامنة في دائرة المبادئ الاعتزالية.

- التقديس: الذي حوّل آراء المعتزلة من مجرّد آراء فكرية بشرية قابلة للدحض والتعديل، إلى آراء تتجاوز حدود عصرها، لتتحوّل إلى مبادئ صالحة لكلّ زمان ومكان، وقد تجاهل، في سبيل ذلك، البعد التاريخي لمقولات المعتزلة.

- التمجيد: الذي عمد إلى المبالغة، واعتبار آراء عادية عبقرية من أجل حمل المخاطب على الاقتناع بوجاهة الآراء التي قدّمها المعتزلة.

التشويه والتعمية: عملية إخفاء مزدوج للرأي الآخر، الذي يظهر دوماً مشوّهاً، إمّا متساهلاً في الدين، وإمّا متشدّداً، أو ملحداً كافراً، أو متطرّفاً في اعتقاده، وبذلك آل الأمر، دوماً، إلى إبراز رأي واحد لا يرى المخاطب غيره، وقد اعتمد التشويه للفرق الأخرى والأديان، والتعمية عن المقاربات المعاصرة، التي اهتمّت بمبحث الحريّة الإنسانية. ومن الطبيعي أن ينتهي، حينئذٍ، إلى أنّ رأي المعتزلة يظلّ الأفضل بين الآراء الأخرى. فأفضى الأمر إلى تصوّر إيديولوجي/ مذهبي، غارق في مشكلات الماضي، لا يستطيع، بكلّ حال من الأحوال، استيعاب مشكلات الإنسان المعاصر.

ب) الأثر الأصولي:

- **موقف محمد عمارة من حجية الأخبار:**

«تخبرنا شهادات الأصوليين أنّ متكلمي المعتزلة هم أوّل من تبنّوا موقف إنكار حجيّة أخبار الآحاد»[33]، ويُعدُّ النظّام من أبرز منكري خبر الآحاد، وكذلك أبو الحسن الخياط (ت300ه)، ووقع تكفيره من أجل ذلك. وهكذا، فإنّ إنكار حجيّة أخبار الآحاد يُعدُّ أكثر الآراء تطرّفاً في فكر المعتزلة الأوائل، ولهذا، فقد تراجع عنه كثير من متأخري المعتزلة، مهادنةً للسلطة السنية. وقد نقل محمد عمارة موقف المعتزلة الأوائل من أخبار الآحاد، فهم «يميّزون ما بين الأحاديث، التي موضوعها الدين والعقائد، وتلك التي موضوعها السنّة العملية، فيرفضون الاستدلال بأحاديث الآحاد -والأغلبية الساحقة من الأحاديث

---

32 نقصد بذلك الجدل، الذي لا يقوم على الحجج العقلية؛ بل على الوسائل التأثيرية، التي تتوجّه إلى الانفعالات واللاشعور الإسلامي.

33 ذويب، حمادي، جدل الأصول والواقع، ص 230



أحاديث آحاد– على أمور الدين والعقائد، ويقبلون الاستدلال فيها في العمليات؛ لأنّ ما طريقه الدين لا يجب قبول خبر الواحد فيه أصلاً»[34].

ولا يكتفي محمد عمارة بمجرّد نقل هذا الموقف وإيضاحه؛ بل نجده يعمل به، فقد قال، في حديث افتراق الأمّة: «إنّه، ككثير من الأحاديث المشابهة، حديث آحاد، وليس بالمتواتر، وأحاديث الآحاد، وإن جاز أن نأخذ بها في الأمور العملية، فإنّها غير ملزمة في الاعتقادات»[35]. وعلى الرغم من أنّ محمّد عمارة قد التزم فعلاً بالمبدأ الذي اتخذه من المعتزلة، فلم يعمل على الاستشهاد بخبر الآحاد في المواطن التي يتعلّق فيها الأمر بالمسائل الاعتقادية، إلا أنّه وقع في تناقضات وجد فيها خصومه حجّة ضده، فقد اعتمد، في بعض كتبه، آراء تستند إلى أخبار آحاد، مثل تبنّيه حديث الافتراق، وهو من حديث الآحاد[36]. ويُعاب على عمارة أنّه كان مقلّداً لم يبرّر إعراضه عن خبر الآحاد بحجج نقلية أو عقلية؛ ولهذا فلئن كان رأي أسلافه من المعتزلة الرافضين لخبر الآحاد جريئاً، فإنّ موقف محمد عمارة ظلّ مجرّد نقل لرأي تبنّاه المعتزلة الأوائل. وهي مسألة سيّجتها الأرثوذكسية السنيّة، وجعلت الخوض فيها تعدياً على المقدّس، يخرج صاحبه من دائرة السنّة والجماعة.

وإذا أردنا النظر بشيءٍ من الموضوعية، أدركنا أنّ دائرة التقديس اتسعت لتشتمل على خبر الآحاد؛ لأنّه يمثّل مصدراً تشريعيّاً مهمّاً صار، في المتخيّل الجماعي، جزءاً من الإسلام يتّفق حوله كثير من الفرق الإسلامية، وإن اختلفت في تأويل القرآن.

- **موقف محمد عمارة من عدالة الصحابة:**

يبدو محمد عمارة أقرب في مواقفه من الصحابة إلى المتأخرين، مثل القاضي عبد الجبار. ويتضح ذلك من خلال مواقفه التي أبداها من الصحابة في مواطن كثيرة من كتبه[37]، ويُعدُّ ذلك قبولاً بما ساد من قداسة الصحابة، الذين لم تعد الرؤية الإسلامية تقبل نقدهم، أو الطعن في عدالتهم، فقد استطاع الزمن أن يرسّخ، في المتخيّل الجمعي، صورة مقدّسة يصعب المساس بـها، سواء عند المفكرين

34عمارة، محمد، الإسلام وأصول الحكم، ص 184

35 المصدر نفسه، ص 118

36 يُشير سليمان بن صالح الخراشي، في كتابه: (محمد عمارة في ميزان السنة والجماعة)، إلى قول عمارة، في كتابه (الطريق إلى اليقظة)، الذي يناقض قوله السابق في كتاب (الإسلام وأصول الحكم)، فقد قال*: «التعددية، إذاً، من الدعوات، والاجتهاد، والحركات، والجماعات العاملة في ميدان الإحياء الإسلامي، واليقظة الإسلامية، وهي ظاهرة طبيعية؛ بل وصحيّة. أمّا الذين يتصوّرون الوحدانية والانفراد بالنجاة في هذا الميدان، لفرقة بذاتها، وجماعة بعينها، قائلين: إنّ من عداها هم في النّار، يخلطون بين عقائد الإسلام وحضارة الإسلام، ففي عقائد الإسلام، وأصوله، وأركانه، لا تعددية؛ بل ولا رأي، ولا اجتهاد... في هذا الميدان، نعم، النجاة للفرقة المتبعة، دون المبتدعين الذين مآلهم جميعاً إلى النار». (*ورد هذا الكلام في كتاب: عمارة، محمد، الطريق إلى اليقظة، ص 145).

37 تحدّث محمد عمارة عن دولة الخلافة، وعن الخليفة الأوّل أبي بكر الصديق، قائلاً: «فأصبح أوّل خليفة في دولة الخلافة الراشدة... تلك الدولة التي اتخذت من المدينة عاصمة لها، والتي استمرّ حكمها تسعة وعشرين عاماً. ولقد قامت هذه الدولة على أساس من فلسفة الشورى. فكان خلفاؤها يتمّ تنصيبهم بشورى أهل الرأي في العاصمة، الذين كانوا يبايعون واحداً من هيئة "المهاجرين الأولين" العشرة، أو "الصحابة"، الذين كانوا بمثابة حكومة الرسول، والذين اشتهروا بالعشرة المبشّرين بالجنّة... فاختصّت هذه الهيئة بالمنصب، واختصّ رؤساء المدينة بالشورى والاختيار والبيعة، أو إبداء الرأي، والتصديق على ترشيح الخليفة القائم للخليفة الجديد» معجم المصطلحات، ص 302



المسلمين، أم عند العامة. أمّا الأسباب الذاتية، فتتصل بمنهج محمد عمارة، الذي اتخذ مسار «المعتزلة السلفيين»، الذين يرون، في تجديد التراث وإحيائه، سبيلاً لإصلاح الواقع، ويحتاج هذا المشروع، حتماً، إلى رموز يتأسّس بهم.

ولم يكتفِ محمد عمارة بمجرّد الوقوف موقف المناصرة للصحابة، في إطار القداسة التي صاغها المتخيّل الإسلامي، وأسهمت فيها عوامل متشابكة؛ بل انتقل إلى صفّ المدافعين عن عدالة الصحابة[38]. فقد أخرج، بذلك، الموقف من الدائرة الاعتزالية، واعتبره موقفاً عقائدياً يعود إلى نظرية الإمامة عند الشيعة، ولا صلة له بالنظر العقلي، الذي عُرفت بـه المعتزلة. ويتبنّى، في الأخير، موقف أحمد الكاتب، الذي يرى أنّ «الهمّ الصحيح لنظرية الإمامة، وكونها نظرية «سياسية قديمة» وبائدة بدل أن تكون «عقيدة دينية»، يشكّل المقدّمة الضرورية أمام التخلّي النهائي والحاسم عن تلك الاتهامات الباطلة للصحابة، ووضعها على رفوف التاريخ»[39].

ويمكن أن نفهم، من وراء ردّ عمارة على الطعن في عدالة بعض الصحابة، الأسباب الكامنة وراء ذلك، من خلال هذا الشاهد، فهو يقول: «فإنّ صحابة رسول الله وحوارييه، الذين صنعهم على عينه، وربّاهم في مدرسة النبوّة، والذين أقاموا الدين.. وأسّسوا الدولة.. وأزالوا بالفتوحات التحريرية دول الجور (الفرس والروم).. وحرّروا الشرق من القهر الحضاري، والديني، والسياسي، والثقافي، والاقتصادي، والاجتماعي.. وفتحوا الأبواب أمام انتشار الإسلام»[40].

فمحمّد عمارة يرى أنّ ما قدّمه الصحابة من أعمال جليلة يُغني الفكر الإسلامي عن الطعن في صورتهم، وتشويه نضالهم من أجل الدفاع عن الإسلام، وهي قراءة أخلاقية تخرج الصحابة من الدائرة البشرية لترفعهم إلى منزلة الرموز المقدّسة، وهو أمر لا يختصّ به عمارة، وإنّما صار جوهر المتخيّل الإسلامي، الذي تدرّجت القداسة فيه من الله إلى الرسول، وصولاً إلى الصحابة. وفي المتخيّل الشعبي، لعب الأولياء الصالحون الدور نفسه، ما يكشف الحاجة النفسية إلى وجود ذوات رمزيّة ترسم في اللاشعور الجماعي للمسلم صورة المثال، والأنموذج الخارق، الذي تتشابك فيه خيوط الأسطوري والديني، وتسقط منه الأحكام العقلانية المؤسّسة على النقد، وتصوّر الذات الإنسانية، في حدود إنسانيتها.

---

38 ألف محمد عمارة كتاباً لهذا الغرض هو (الموقف الشيعي من الصحابة)، وأبدى فيه موقفاً معارضاً لكلّ من طعن في عدالة الصحابة، وهو يردُّ ذلك إلى سبب جوهري، وهو إيمان الشيعة العقائدي بعليّ، وهو ما دعاهم إلى الطعن فيمن تولّى الحكم بدلاً منه. ودافع محمد عمارة، أيضاً، عن الاتهامات التي وُجّهت للخليفة عمر بن الخطاب، في مقدمة كتاب (تقرير عن فحص كتاب) فصل الكتاب في تاريخ قتل ابن الخطاب ويليه (رسالة شهادة الأثر على إيمان قاتل عمر) لأبي الحسين الخوئيني، نقد وتعليق محمد عمارة. كما ألف محمد عمارة فصلاً ضمن كتاب (سقوط الغلو العلماني) يردّ فيه على طعن المستشار عشماوي في عدالة الصحابة. (انظر: ص 56 وما بعدها).

39 عمارة، محمّد، الموقف الشيعي من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ص ص 30-29

40 عمارة، محمد، تقرير عن فحص كتاب فصل الخطاب في تاريخ قتل ابن الخطاب ويليه رسالة شهادة الأثر على إيمان قاتل عمر، ص 8

http: //www.dr-emara.com



وخلاصة القول: إنّ أثر المعتزلة في فكر محمد عمارة يبدو جلياً في كثير من الجوانب الأصولية، ولكن التأثّر بهذه الفرقة لا يقف عند حدود ترديد مقولاتها، وإنّما يتجاوز ذلك نحو بناء مشروع فكري عنوانه «الإحياء والتجديد»، ومبادئه «العقلانية المؤمنة»، و«الوسطية» و«الثورة»[41].

41 يقول محمد عمارة: «لقد انقضت المعتزلة كفرقة، ولكنّها استمرّت نزعة عقلية، وفكراً قوميّاً، وأصولاً فكرية، من خلال فرق أخرى تأثرت بها، ومن خلال البصمات التي طبعتها على المجرى العام الخالد، والمتدفق، والمتطوّر لفكر العرب المسلمين». تيارات الفكر الإسلامي، ص 87



لائحة المصادر والمراجع

1 ـ المصادر:

عمارة، محمد:

• **المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية**، دار الشروق، مصر، ط2، 1988م.

• **الطريق إلى اليقظة الإسلامية**، دار الشروق، مصر، ط1، 1990م.

• **الإسلام والمستقبل**، عربية للطباعة والنشر، مصر، ط2، 1997م.

• **الإصلاح بالإسلام معالم المشروع الحضاري للإمام محمد عبده**، دار نهضة مصر، مصر، ط1، 2006م.

• **الخطاب الديني بين التجديد الديني والتبديد الأمريكاني**، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط1، 2008م.

• **معالم المنهج الإسلامي**، دار الشروق، مصر، ط2، 2009م.

• **الموقف الشيعي من الصحابة**، مكتبة النجدي، مصر، ط1، 2009م.

• **الإسلام والآخر من يعترف بمن؟ ومن ينكر من؟** مكتبة الشروق الدولية، مصر، (د.ت).

2 ـ المراجع العربيّة:

• بنسالم، حميش، **التشكيلات الإيديولوجية في الإسلام**، دار المنتخب العربي، لبنان، ط1، 1993م.

• حرب، علي، **الإنسان الأدنى أمراض الدين وأعطال الحداثة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 2010م.

• الخراشي، سليمان بن صالح، **محمد عمارة في ميزان أهل السنة والجماعة**، دار الجواب، السعودية، ط1، 1993م.

• سالمي (عبد المجيد)، خالد (نور الدين)، بدوي (شريف)، **معجم مصطلحات علم النفس**، منشورات دار الكتاب المصري، مصر، دار الكتاب اللبناني، لبنان، ط1، 1998م.

• زيعور، علي، الاتزانية حيال السلفي، **الفكر العربي المعاصر**، العدد 69-68، السنة 1989م.

• عمارة، محمد، تقرير عن فحص كتاب فصل الخطاب في تاريخ قتل ابن الخطاب، ويليه رسالة شهادة الأثر على إيمان قاتل عمر: http://www.dr-emara.com

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com مؤسسة دراسات وأبحاث

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com